حاضـــرة بجَـــاية
ومكـــانتهـــا الاقتصـــادية في العهد الموحدي
(515-668هـ/1121-1269م)

The Bejaia city
and its economic importance in the Almohad era
515-668AH/1121-1269 AD

د/- حسام صلاحي
جامعة الجزائر (2)

الملخص:

عرفت بلاد المغرب العديد من الحواضر الكبرى التي ساهمت في بناء وتطوير الإرث الحضاري الإسلامي عامة والمغربي بصفة خاصة، ومن بين تلك الحواضر التي فرضت نفسها في المجال الحضاري، توجد بجَاية التي يعود تأسيسها إلى العهد الفينيقي، وبرزت أهميتها أكثر إبّان العهدين الحمادي والموحدي.

وقد اكتسبت حاضرة بجَاية أهمية مرموقة في جل المجالات الحضارية، ولاسيما الاقتصادية منها، فغدت مركزا اقتصاديا بامتياز مستفيدة من موقعها الجغرافي الذي يتوسط بلاد المغرب الأدنى والمغرب الأقصى، وكذا بين أُورُوبّا الجنوبية وبلاد السودان من جهة أخرى، لتتبوأ بذلك الوساطة التِّجاريّة بين هذه الأطراف بجدارة واستحقاق. فهذه الدّراسة تحاول تسليط الضوء على حاضرة بجَاية في المجال الاقتصادي التي بلغتها في الصعيدين الإقليمي والدولي.

الكلمات المفتاحية:

حاضرة بجَاية؛ الزراعة؛ الصناعة؛ التجارة؛ الوساطة التِّجاريّة.

Abstract:

The Maghreb has known many of the major cities that contributed to the building and development of Islamic cultural heritage in general and the Maghreb in particular. Among these cities is the city of Bejaia, which dates back to the Phoenician era.

The city of Bejaia gained great importance in most cultural fields, in the Almohad era especially economic ones. It became an economic center with distinction, benefiting from its geographical position, which mediates the countries of Maghreb and Europe, as well as the commercial mediation between these parties. This study attempts to shed light on Bejaia city in the economic field, which has reached it in the regional and international fields.

Keywords:

Bejaia,; Agriculture; Industry; Trade; Commercial mediation.

1- مراحل بروز مكانة بجَاية:

أسست مدينة بِجَاية في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وبالضبط عام 460هـ/1067م من طرف الأمير الحمادي الناصر بن علناس(454-461هـ/1062-1088) وأطلق عليها اسم الناصرية[1]. فقد كانت من قبل مرسى صغير تقصده المراكب البحرية الخفيفة، وذلك في عهد الجغرافي والرحالة ابن حوقل النصيبي (ت. بعد 367 هـ/977م) فلما وصف بونة (عنابة) استرسل في وصفها، غير أنه أخبرنا أن بِجَاية كانت عبارة عن مرسى صغير تجنح إليه المراكب الخفيفة دون أن يُقدم شروحات وافية تشفي غليل الباحثين حول عمران المنطقة، وهي حقيقة هذه القرية في وقته، فقال في شأنها: **« وبينها وبين الجزائر**

بني مزغناي مراس، فمنها جيجل، ومرسى منه إلى بجَاية، مرسى ومنه إلى مرسى بني جنّاد[2]». ورغبة من مؤسسها في جذب السكان إلى قاعدته الجديدة فإنه عمد إلى إسقاط الخراج عن قاطنيها، ونجح في مسعاه هذا، فسرعان ما تحولت من مكان لرعي الدواب والمواشي[3]، إلى حاضرة مشهود لها بالتطور والازدهار من طرف التجار والرحالة الذين يمموا شطر وجوههم إليها.

وشهد على بدايات بروز مكانة بِجَاية في نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، الجغرافي أبو عبيد الله البكري (ت. 487هـ/1094م) والذي نعتها بوصف يُوحي بتطور المدينة مقارنة بوصف ابن حوقل، ومما قاله البكري في شأنها:**« مرسى مدينة بجَاية أولية آهلة عامرة بأهل الأندلس، وبشرقها نهر كبير تدخله السفن المحمّلة، وهو مرسى مأمون شتوي قد خرج عن محاذاة جزيرة الأندلس[4] ».** وأفاد الحموي من أنها تحولت من ميناء إلى مدينة[5]، وبناء على هذا النص فإن الباحث يرى بأن لأهل الأندلس دور جوهري في تحول بِجَاية من قرية إلى مدينة، وساحلها من مرفأ صغير إلى ميناء حيوي ترد إليه السفن محملة بالبضائع والسلع، حدث هذا في ظرف قرن من زمان، وما من شك في اتخاذها عاصمة من قبل الحماديين أعطى للمدينة دفعا قويا في ازدهارها ونمائها في عدة ميادين خاصة الاقتصادي والعمراني.

تمدنت بِجَاية خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وهذا بشهادة مؤرخ وجغرافي مجهول عاش خلال هذه الفترة، ومما أورده لنا قوله: **«مدينة بجَاية: هي مدينة عظيمة على ضفة البحر، والبحر يضرب في سورها، وهي محدثة من بناء صنهاجة [6]».** فشهد صاحب المصدر على أن بِجَاية في وقته حديثة البناء، ويعود الفضل في بنائها إلى أمرائها وأهلها الصنهاجيين.

ولا يُمكننا نكران مدى أهمية **الموقع الجغرافي الذي** حظيت به بجَاية في المجال العسكري عبر توفير الأمن بها، كما أهلها موقعها لأن تلعب دور كبير في المجال الاقتصادي، فقد أحاطت بها جبال مرتفعة شامخة جعل منها حصنا من الغارات وكذا إحاطة البحر بها من جهات ثلاث الشرق والغرب والشمال، وبحكم موقعها تمتعت بشبكة الطرق البرية التي تخترقها وتربطها بمختلف الحواضر المغاربية[7].

2- مقومات بجَاية الاقتصاديّة في العهد الموحدي:

عرفت حاضرة بجَاية ازدهارا حضاريا إبّان خضوعها للحكم الحمادي ثم الموحدي فالحفصي، ومن الأنشطة الاقتصادية التي ازدهرت في بجَاية خلال العهد الموحدي، يوجد:

أ-الزراعة:

نعمت حاضرة بجَاية بالكثير من المقومات الزراعية والتي أهلتها لأن توفر العديد من المنتجات بأسعار متدنية لأهلها، وتصدر الباقي للخارج، ومن مؤهلات الزراعية بها خصوبة أراضيها[8]، واتساع السهول خارج حدود مدينتها، إلى درجة أن سهولها تمتد على مسافة أربع مراحل لا يُرى فيها جبال ولا مرتفعات[9]. كما تمتعت بالموارد المائية من أنهار وعيون لا تنضب، تُستغل لسقي المحاصيل الزراعية والبساتين المختلفة[10]. ومن أشهر المجاري المائية التي عُرفت بها بجَاية هو نهر المنسوب إليها، ويُعرف أيضا بالوادي الكبير، الذي يعمل على سقي بساتينها، وتوفير المياه لقصورها وبيوت أهلها[11].

ونظرا لوجود التربة الخصبة ووفرة مصادر السقي فقد كثر غراسها، وتنوعت متنزهاتها[12]، ومما دل على وفرة المنتجات الزراعية ببجَاية هو انخفاض سعرها في الأسواق الداخلية وتمكنها من تصدير بعضها للأقطار الخارجية على شاكلة التين المجفف[13]. ففي السنوات التي يقل فيها الإنتاج بفعل العوامل الطبيعية أو البشرية فإن إنتاجها الزراعي يكفيها[14] ولا تضطر إلى شرائه من الأسواق الخارجية إلا نادرا[15].

الواقع أن خصوبة أراضي بجَاية لم تدم طويلا، فقد تغيرت بعد أن أصبحت بجَاية حفصية أحيانا وزيانية أحيانا أخرى، وفي هذا الموضوع يرى الجغرافي الحسن الوزان (ت.1554م) من أن سكان بجَاية في وقته غالبيتهم فقراء بحكم أن أراضيهم الزراعية لا تتمتع بالخصوبة مما جعلها لا تنتج الحبوب، غير أنه نوه بكثرة محاصيلها من الفواكه، ثم راح يُعدد في الصعوبات التي تواجه النشاط الزراعي بها، كوعورة جبالها، وانتشار الغابات بها، بالإضافة إلى انتشار الحيوانات المفترسة كالقرود والفهود[16].

ووافق مارمول كربخال Louis del marmol Carvajal (ت.1600م) الحسن الوزان في مسألة الغابات الكثيفة المحيطة ببجَاية، وكذا انتشار الأسود والقرود بها، وأكد من أنها لا تنتج الحبوب بكمية كبيرة، إلا أنه أكد على أن أهلها يعشون في رخاء نظرا لممارسة التجارة مع أُورُوبّا، فأرجع سبب ثراء أهل بجَاية إلى التجارة وليس إلى الزراعة[17].

ومن خلال المقارنة بين المصادر الجغرافية التي تحدث عن إمكانيات بجَاية الزراعية في العصرين الحمادي والموحدي يتضح من أنها تحدثت عن بجَاية والأقاليم التابعة لها، في حين أن حسن الوزان ومارمول كربخال تحدثا عن مدينة بجَاية والمناطق المحيطة بها فقط. ولعل السبب في تراجع خصوبة أراضيها هو عزوف الفلاحين عن مزاولة مهنة زراعة الحبوب (الزراعة المعاشية) لعدة

أسباب، ومنها: انخفاض أرباحها، وعدم استقرار بِجَاية منذ أفول حكم الموحدين، فأصبحت أحوالها مضطربة بين الحكم الحفصي والزياني. ولعل أقوى الأسباب في تراجع خصوبة أراضيها وسيادة الغابات على نطاق واسع هو اهتمام أهلها بالتجارة على حساب الأنشطة الاقتصادية الأخرى، التي أصبحت تدر عوائد مالية أكثر بكثير من النشاط الزراعي المتعب والأقل ربحا.

ولا يُمكن للباحث إنكار أو تأكيد مسألة استيراد بِجَاية الحبوب خلال العصر الموحدي في ظل الجفاف التي اتسمت به المصادر التاريخية وكتب الرحالة والجغرافية الإسلامية التي لم تُشر إلى ذلك بدقة ووضوح، غير أن الوثائق التاريخية الأوروبية أشارت إلى استيراد الحبوب في العهد الحفصي، فقد أشار المؤرخ الفرنسي شارل ايمنوييل ديفوك Charles emmanuel Dufourcq من أن التجار الكتالونين باعوا القمح وسلع أخرى إلى أماكن متعددة في الحوض الغربي للمتوسط، وعلى الرغم من تحريم الكنيسة لذلك، فإن هؤلاء التجار لم يتورعوا في تزويد المسلمين بالحبوب كبِجَاية على سبيل المثال، وتعود هذه الصفقة إلى تاريخ 29 مارس 1329م[18].

أنتجت بِجَاية جل المحاصيل الزراعية المعروفة في المناخ المتوسطي، ومنها: الشعير والتين والجوز واللحم، وكانوا يلجئون إلى تجفيف ما يحتاجونه إلى ادخاره طوال العام[19]، ومن النباتات الطبية المنتجة في جبالها: يأتي في مقدمتها نبات البرباريس المستعمل في صناعة الأدوية ويؤتى به من جبال أمسيول[20]. ويُمكن القول بأن النشاط الزراعي كان مزدهرا في بِجَاية على الرغم من عجزه تغطية كل المحاصيل الزراعية.

ب- الصناعة:

الواقع أن المكانة المرموقة التي تبوأتها بجَاية في المجال الصناعي لم يحدث منذ خضوعها للموحدين وإنما منذ السنوات الأولى من تأسيسها، فقد عمد حاكمها الناصر إلى تشييد المصانع بها، كما أقام فيها مجموعة من القصور والبنيات الفخمة[21]، والتي تعتبر بمثابة المنشآت القاعدية في تعبيرنا الحالي، بحيث استطاع جذب التجار والحرفين مما نتج عنه ارتفاع عدد السكان، وأصبحت تدار فيها موارد مالية ضخمة حتمت على المسافرين والتجار الجنوح إليها[22]، ومن عوامل رواج الصناعة البجاوية، يوجد:

محافظتها على الإرث الصناعي السابق، فانتقال حكم بجَاية من الحماديين إلى الموحدين لم يؤثر سلبا في اقتصاد وصناعة المدينة سوى أنها افتقدت حظوتها كعاصمة فقط، أما الجانب الاقتصادي للمدينة لم يتأثر، فحافظت على كل مصانعها ومنشئاتها القاعدية، فقد كلّف الخليفة عبد المؤمن بن علي (524-558هـ/1130-1163م) الجيش الموحدي بحمايتها والذّود عنها، ونظرا لأهميتها فإنه عيّن ابنه عبد الله ليكون واليا عليها[23]. وبتتبع واستقراء مجريات خضوع بجَاية للحكم الموحدي فإنه لم يُحفظ عن هؤلاء أنهم قاموا بأعمال انتقامية في حق بجَاية وأهلها على الرغم مما جرى بها من حركة تمرد بزعامة بني غانية.

ومن عوامل تطور الصناعة البجاوية وتفوقها هو استفادتها من العنصر الأجنبي نظرا لأهمية الموقع الذي تمتعت به بجَاية، فقد وفد إليها العديد من الأجانب خاصة من العدوة الشمالية للمتوسط، والمتمثلة في الأندلسيين أساسا[24]، وأكد ذلك مارمول بأن أهل بجَاية صناع مهرة خاصة في صناعة الأقمشة والأفرشة والزرابي على النمط المغربي الأندلسي[25]. فقد كان لهم فضل عليها منذ تأسيسها. وهو ما جعل صناعة بجَاية تتسم بالإتقان، وصارت صناعتها تعرف رواجا كبيرا بسبب الحذق في منتجاتها، الأمر الذي جعل أسعار بعض موادها تعرف ارتفاعا كبيرا في الأسواق، ومن السّلع التي

رجت في أسواقها، تُوجد: العمائم المذهبة التي بلغ سعرها ما بين خمسمائة إلى ستمائة دينار، وأحيانا تزيد عن ذلك[26]. وفي هذا الخصوص فإن المؤرخ والجغرافي الإدريسي (ت. 560هـ/1166م) يؤكد على أن الصناعات والصناع البجايون قل لهم نظير في الإتقان، فصناعتهم فيها كل غريب ولطيف[27].

وحظيت بِجَاية بمعظم المواد الأولية التي تدخل في صناعة الكثير من المنتجات الصيدلانية[28] ومن النباتات الطبية التي عرفتها بِجَاية، يوجد: شجر الحضض والسقولوفندوريون والقنطوريون الكبير والرزاوند والقسطون والإفيسنتين فكل هذه النباتات تدخل في صناعة الأدوية[29].

ومن المواد الأولية النفيسة التي زخرت بها بِجَاية المرجان الذي يُستخرج من قيعان البحر المقابل لمرسى الخزر، كما تُستخرج الأحجار النفيسة[30]، ومن الموارد الطبيعية التي رجت في بِجَاية بكميات لا بأس بها، يوجد: الكتان والقنب الذي يصنعون منه لباس لنسائهم، كما تتوفر المنطقة على كميات كبيرة من الحديد الذي يُقطعونه إلى قطع صغيرة ليكون بمثابة عملة نقدية يتم تداولها فيما بينهم بجانب النقود الذهبية والفضية[31]. والذي يظهر أن النقود الجديدة كانت تُستعمل على نطاق ضيق في بِجَاية بين السكان والتجار المحليين، في حين أن الذهب والفضة يتم تداوله على نطاق واسع، أي بين التجار المحليين والأجانب على السواء.

من المُسّلم به أنّ الخشب يُعتبر مادة أساسية ورئيسية في صناعة المراكب البحرية بمختلف أنواعها وأحجامها، فقد توفرت هذه المادة بكثرة في بِجَاية، بالإضافة إلى الحديد حسب ما أورده المؤرخ مارمول كربخال[32]، ونعمت أيضا بمادة النحاس[33]، وهي مواد تدخل في صناعة السفن، وأكد الإدريسي هذا بقوله: **« وبها** (بِجَاية) **دار لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن والحرابي، لأنّ الخشب في جبالها وأوديتها كثير موجود، ويُجلب إليها من أقاليمها**

الزفت البالغ الجودة، والقطران، وبها معادن الحديد الطيب موجودة وممكنة وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة، وعلى بعد ميل منها نهر يأتيها من جهة المغرب من نحو جبل جرجرة وهو نهر عظيم يجاز عند فم البحر بالمراكب، وكلما بعد عن البحر كان ماؤه قليلا ويجوز من شاء في كل موضع منه[34]». فالنص الذي أورده الإدريسي في نظرنا يدل على أن بِجَاية تمتعت بكل مقومات ومواد صناعة السفن من الزفت والقطران حتى وإن لم يوجد في مركز المدينة فإنه يُحصّل عليه من مناطق قريبة منها، وما من شك فإن الصناعات الأخرى التي كانت تنشط في بِجَاية قدّمت العون والسند اللازمين للصناعة البحرية التي تحتاج إلى مصانع وورشات تكميلية.

والمُلاحظ أن الإدريسي أعطى إشارة حول الوادي المتصل بالبحر والذي ينقص منسوب مياهه كلما ابتعد عنه، وفي هذا دلالة على استغلاله في صناعة السفن، إذ بواسطته تتصل المراكب المصنعة حديثا بالبحر. وأكد ابن خلدون على أن بِجَاية في العهد الموحدي صارت محطة مهمة للحط والإقلاع السفن بجانب المرية[35]. فمن خلال ما سبق تبيانه فإن الصناعة البجاوية قطعت أشواطا كبيرة في الجودة والكمية مستفيدة من توفير عاملين أساسين مكنها من التفوق، ألا وهما: وفرة المواد الأولية مع وفرة اليد العاملة المؤهلة.

ج-التجارة:

عرفت تجارة بِجَاية تطورا ملحوظا منذ أن أصبحت قاعدة لحكم الحماديين، ومع انضمامها للحكم الموحدي فإنها لم تفقد هذه الحُظوّة، واعتُبرت التجارة من أسباب ازدهار بِجَاية فهي مصدر ثروتها، فقد ارتبطت بحرا بكل الأقطار الاقتصادية المحلية والإقليمية والدولة المعروفة أنذلك، إما بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وقد كانت صلاتها بالحوض الغربي للمتوسط أكثر من المشرق منذ دخولها تحت سيطرة الموحدين وتبينهم للخلافة[36].

استفادت تجارة بِجَاية من تطور نشاطها الزراعي والصناعي، ومن عوامل رواج التجارة في بِجَاية أيضا هو الموقع الاستراتيجي الهام الذي تمتعت به خاصة في مجال اقترانها بالعديد من الحواضر، وفصَّل الإدريسي في ذلك، وجعلها ملتقى الطرق المحلية والإقليمية والدولية، فمنها إلى اتكجان حوالي يوم ونصف، وبينها وبين بلزمة مرحلتان ونصف، وبينها وبين وسطيف يومان، وبينها وبين باغاية ثمانية أيام، وبينها وبين قلعة بشر خمسة أيام (تقع قرب بسكرة)، وبينها وبين تيفاش ست مراحل، وبينها وبين قالمة ثماني مراحل، وبينها وبين تبسة ستة أيام، وبينها وبين دور مدين إحدى عشرة مرحلة، وبينها وبين القصرين ستّة أيّام، وبينها وبين طبنة سبع مراحل[37]، وبينها وبين الجزائر بني مزغناي أربع مراحل، وبين بِجَاية وميلة ثلاث مراحل[38] كما تتصل بِجَاية بجيجل وقسنطينة[39].

واقترنت بِجَاية بمراكش بالطريق المعرف بطريق السُّفار على مسافة مُقدّرة بحوالي أربعين مرحلة، يقطع خلالها الحواضر ذات الأهمية التِّجاريّة، وهي: مليانة، مازونة، وهران، تلمسان، فاس، سجلماسة، ومراكش[40]، وقد زَوّد هذا الطريق بِجَاية بمنتجات بلاد السودان الغربي والذي كان يُصدر جزء هام منه إلى أُورُوبّا، فيمكن القول بأن بِجَاية مارست الوساطة التِّجاريّة بين بلاد السودان جنوبا وأُورُوبّا شمالا مستفيدة من موقعها الجغرافية، وكذا ارتباطها بشبكة فرعية من المسالك البرية مع حواضر مغاربية عدّة.

وإذا اتّصلت بِجَاية بهذا الكم الهائل من المسالك البرية فإنّها لا تقل ارتباطا بالمسالك البحرية، فالسفن تنطلق من مينائها إلى جميع الجهات[41]. وفي هذا الخصوص يورد الإدريسي رواج تجارة وأسواق بِجَاية بقوله: **«السفن إليها مقلعة، وبها القوافل منحطة والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة، والبضائع بها نافقة، وأهلها مياسير تجار،...، وتباع البضائع بالأموال المقنطرة[42]»**. ومن نماذج السفن المقلعة منها وإليها أنه وردت سفينة بجاوية محمّلة بالبضائع الهائلة

والأموال الكبيرة قادمة من الإسكندرية في حدود سنة 536هـ/1142م[43]. وهذا ما يدل على اتصال بجاية بمصر تجاريّا بواسطة الطرق البحرية، ولاسيما تلك التي تحمل البضائع الكبيرة.

ومن عوامل رواج تجارها استفادتها من تحول عاصمة بني حماد من منطقة داخلية إلى الساحل، فنشاط تجارتها كان على حساب تراجع القلعة[44]، كما ساهم ارتفاع عدد السكان بها في تضخيم الرواج التجاري الذي بلغته، فقد بلغ عدد قاطنيها حدود ثمانية آلاف أسرة غداة احتلالها من طرف الاسبان في بداية القرن السادس عشر الميلادي[45]. ويُمكن الجزم بأن عدد سكانها أيام الموحدين أكبر من هذا التعداد بحكم تناقصهم بسبب الطاعون الذي ضرب بلاد المغرب وأوروبا وآسيا في منتصف القرن الرابع عشر ميلادي، وكذا تراجع مواردها قبيل الاحتلال الاسباني لها.

وقد أمّها التجار من كل حدب وصوب للإفادة من أسواقها، فقصدتها السفن من جميع الجهات[46]، وأورد مؤلف مجهول صاحب كتاب الاستبصار نصا مفاده بأن حاضرة بِجَاية قصدها تجار من كل فج عميق، فقال: **«وهى مرسى عظيمة تحط فيه سفن الروم من الشام وغيرها من أقصى بلاد الروم، وسفن المسلمين من الإسكندرية بطرف بلاد مصر وبلاد اليمن، والهند، والصّين، وغيرها. ومدينة بجَاية كثيرة الفواكه والأثمار، وجميع الخيرات[47]».** والذي يظهر أن المؤلف بالغ لما أخبر بأن السفن الهندية وحتّى الصّينيّة تترد على ميناء بجاية، ويُمكن تأويل ذلك من أن هذه الأخيرة اتصلت بالشرق الأقصى بطريقة غير مباشرة، وذلك كأن تبيع منتجاتها إلى مصر، ومنها تُنقل إلى الهند والصّين وغيرها من المناطق الأخرى.

الواقع أن رواج أسواق بِجَاية في العهد الموحدي لم يأت من فراغ وإنما بفضل إجراءات التنظيم والأمن والحزم الذي أقره الأمراء والحكام الموحدون بها، وهذا ما جعل الأجانب يفيدون إليها بأعداد وفيرة، ومن هؤلاء تاجر من المهدية قدم إليها من صقليّة سنة 551هـ/ 1157م، فاجآها بسلع كبيرة بغرض بيعها في بِجَاية، وقبل أن يصل إليها بمقدار مرحلة تعرض للسرقة، ومع ذلك وصل السوق وباع السلعة التي بحوزته، فأخبر تاجر من المدينة بما تعرض له، فلما تناهى على مسامع حاكم المدينة هذه الحادثة تدخّل في القضيّة، واستردّ له ما سُلب من التاجر الغريب، وأنزل بالجناة عقوبات صارمة وصلت إلى حد إعدامهم[48]، فهذه الحادثة تعطي صورة واضحة عن مدى صرامة حكام المدينة في فرض الأمن والسلم في ربوع المدينة وأسواقها، كما تُعطينا نظرة واضحة عن تطبيق العدل مع الرعية والأجانب على حد سواء. ولكي تتضح الصورة أكثر نقوم بمقارنة بين حال الأسواق في العهدين الموحدي والحفصي، فلما آلت بجاية إلى الحفصين قدم التاجر التونسي محمد بن حجر الذي صاحبه ابن بطوطة من مليانة إلى غاية وفاته ببِجَاية وترك مبلغا كبيرا من مال، قدره ابن بطوطة بثلاثة آلاف دينار ذهبي، غير أن هذا التركة الموصى بها تعرضت للمصادرة من طرف حاكم بِجَاية آنذاك[49]. وبهذا يتبين أن تنظيم المدينة وفرض الصرامة والعدالة كان في عهد الموحدين أحسن من الذين جاءوا بعدهم.

ولم تكتف بِجَاية في العهد الموحدي بإقامة روابط تجارية مع الفضاء المغربي والإسلامي والإفريقي فحسب وإنما ارتبطت تجاريّا مع القوى التِّجاريّة الأوروبية اللاتينية، والمتمثلة أساسا في تجار الجمهوريات الإيطالية وكذا تجار فرنسا واسبانيا[50]، وعلى الرغم من الاختلاف الديني وتحريم الفقهاء المسلمين التجارة مع الأوروبيين باعتبارهم دار كفر، وكذا تحريم الكنيسة على التجار الأوروبيين مزاولة التجارة مع المسلمين فإن العلاقات التِّجاريّة بين الطرفين لم تنقطع، فقد تكيفت مع الظروف السياسية والعسكرية، غير أن وسائل

القتال استبعدت غالبا من التبادل التجاري بين الطرفين، وذلك كالمعادن والأسلحة والخيول[51]، وحتى السلطات الموحدية لم تسمح في غداة تأسيسها التجارة مع الأوروبيين النصارى[52].

سارع تجار الجمهوريات الإيطالية في إقامة روابط تجارية مع بِجَاية في ظل تبعيتها للموحدين، ويأتي في مقدمة هؤلاء التجار الجنويين الذين جدّدوا اتفاقية تجارية مع الخليفة عبد المؤمن بن علي، في حدود سنة 1160م، تضمنت حرية انتقالهم في ربوع السواحل الموحدية، كما تم الاتفاق على قيمة الضرائب وهي 08 ٪ ما عدا بِجَاية، وبهذه الاتفاقية استرجعت جنوة امتيازاتها التِّجاريّة كما كانت خلال العهد الحمادي[53].

وأقامت بيزا أيضا اتفاقية تجارية مع الموحدين سنة 1186م لمدة 25 سنة، وبموجبها تم الاتفاق على أن كل طرف يقوم بمعاقبة قراصنة بلاده إذا اعتدى على الطرف الآخر، وفُرضت ضريبة 10 ٪ على تجار البلدين، وشملت هذه الاتفاقية أربعة مدن موحدية، وهي: سبتة، وهران، بِجَاية وتونس[54]. كما أقام القطالانيون علاقات تجارية مع بِجَاية وغيرها من المدن الساحلية المغاربية منذ بدايات القرن الثالث عشر[55]. ومن خلال هذا العرض يتبين بأن بجاية وسعت نشاطها التجاري مع جل القوى الإقليمية والدولية المسيطرة على تجارة المتوسط.

3- أثر ازدهار اقتصاد بجَاية على الحاضرة وأهلها:

إن المكانة التي تبوأتها حاضرة بِجَاية في كل الأنشطة الاقتصادية (الزراعة، الصناعة والتجارة) خلال العصر الموحدي انعكس إيجابا على المدينة وقاطنيها، فكان عامة أهلها يعشون في يُسر وغنى بسبب ممارستهم التجارة، فأهلها يُناظرون بل يُنافسون تجار المغرب الأقصى والتجار المشارقة في الثراء[56]، كما ساهمت الصناعة ولاسيما السفن في ثراء المدينة[57]، وأصبحت بِجَاية من أهم الأقطاب الاقتصادية التي تهافتت القوى الأوروبية التِّجاريّة على إقامة

علائق تجارية معها[58]، ونظرا لمكانتها الاقتصادية وقوتها في استقطاب التجار الأجانب فإن الموحدين خفضوا الرسوم المفروضة على تجار أُورُوبّا من 10 ٪ إلى 08 ٪ إلا بِجَاية التي استثنيت من هذا التخفيض[59]. ولعل مرد هذا الاستثناء هو قدرة هذه الحاضرة على استقطاب التجار الأجانب نظرا للمزايا والقدرات التي تتمتع بها مقارنة بالحواضر المغربية والأندلسية الأخرى التابعة للموحدين يومئذ.

وحافظت بِجَاية على مكانتها الاقتصادية والحضارية حتى بعد خروجها من الحكم الموحدي وانضمامها إلى الحفصيين، واستمر تواصلها التِّجاريّ مع شركائها الأوروبيين[60]، فأصبح هذا النشاط سبب في ثراء أهلها[61]. وبقيت بِجَاية تظهر بمظاهر الحواضر الكبرى في كل الميادين الحضارية كمينائها تجاري، ومراكزها الدينية والثقافية، ولئن كانت محطة إقلاع الأساطيل الموحدية فإنها أصبحت كمركز للقيام بعمليات الجهاد البحري ضد الهجمات الأوروبية وهذا إلى غاية العهد العثماني[62].

الخاتمة:

عرفت حاضرة بِجَاية إبان خضوعها للحكم الموحدي تطورا لافتا مسّ كل المناحي الحضارية بها، إلى أن صارت إحدى أهم حواضر بلاد المغرب الأوسط بجدارة واستحقاق. وقد ساهم عامل الاستقرار الذي تمتعت به في هذه الفترة بلوغها هذه المنزلة، فوصلت شهرتها الآفاق، وأصبحت ملجأ للتجار والمسافرين والمهاجرين وطالبي العلم. وعلى الرغم من خروجها من الحكم الموحدي وانضمامها إلى الحفصيين فإن حاضرة بجاية واصلت تألقها إلى أن تعرضت للاحتلال الاسباني، وتم تحريرها بفضل العثمانيين ومع ذلك فحاضرتها أفلت، وأُسدل الستار عن بجاية كحاضرة، وبدأت مكانتها الحضارية تتراجع لصالح مدينة الجزائر. لتطوي بذلك صفحة مشرقة من صفحات التاريخ المغربي عامة، والمغرب الأوسط خاصة.

خريطة توضح المسالك البرية التي تربط حاضرة بجَاية بغيرها من حواضر بلاد المغرب حسب ما جاء في كتاب الإدريسي.

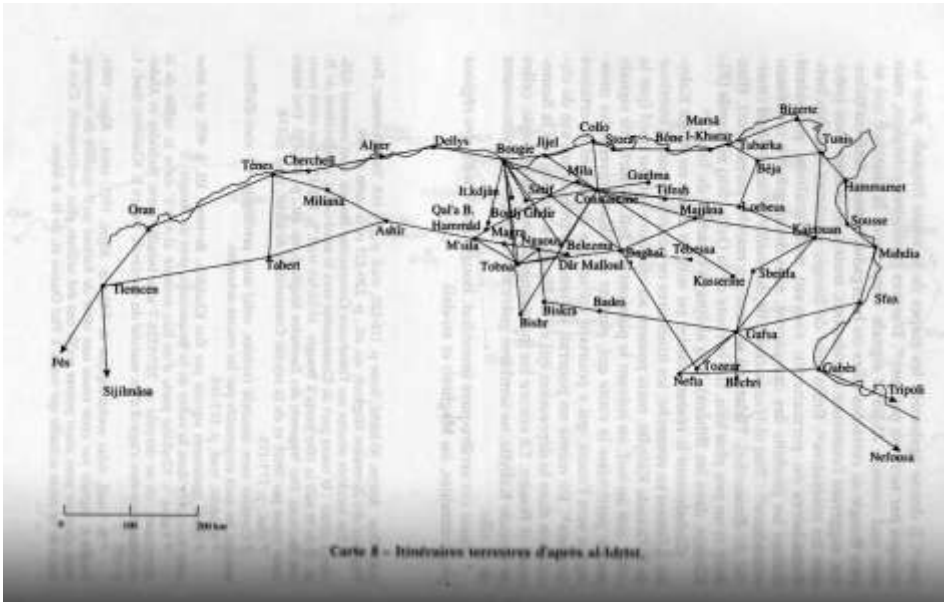

نقلا عن: دومنيك فاليرين : المرجع السابق، ج.1، ص.228.

الهوامش:

[1] ابن خلدون عَبْد الرحمن بن محمد بن محمد (ت.808هـ/1406م) : **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيَّام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السُلطان الأكبر**، دَار الكِتَاب اللبناني، بَيْرُوت، 1983، ج.6، ص.232-233؛ الحموي شهاب الدِّين أبو عَبْد الله ياقوت بن عَبْد الله الرُّومي البَغْدَادي (ت.622هـ/1225م) **معجم البلدان**، ط.2، دَار صادر، بَيْرُوت، 1995، ج.1، ص.339. **ابن الأثير** أبو الحسن علي بن أبي الكرم مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عَبْد الكريم الشيباني (ت. 630 هـ/1232م): **الكامل في التَّاريْخ**، ط. 4، دَار الكِتَاب العربي، بَيْرُوت، 1983.، ج. 8، ص. 202-203.

[2] ابن حوقل أبو القاسم محمد، (ت. بعد 367ه/977م): **صورة الأرض**،دار مكتبة الحياة، بَيْرُوت، 1992 ص.77.

[3] الذهبي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت. 748هـ/ 1347م) **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تح. عمر عبد السلام التدمري، ط.2، دار الكتاب العربي، بيروت،1413هـ/1993م، ج.30، ص.289.

[4] البكري أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد الأندلسي (ت. 487هـ/1094م): **كتاب المسالك والممالك**، تحقيق وتقديم أدريان فان ليوفن وأندري فيري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ص.757.

[5] الحموي : المصدر السابق، ج.1، ص.339.

[6] مؤلف مجهول (ت. بعد 580ه/1185م) : **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار – وصف مكة والمدينة، ومصر، وبلاد المغرب**، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، (د. ت.)، ص.128.

[7] نفسه، ص.129.

[8] نفسه، ص.128.

[9] الإدريسي محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الطالبي (ت.560هـ/1165م) : **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، عالم الكتب، بيروت، 1409هـ/1989م، ج.1، ص.261.

[10] مؤلف مجهول : المصدر السابق، ص.130.

[11] المراكشي : المصدر السابق، ص.262.

[12] العمري أبو شهاب الدين أحمد بن فضل الله بن يحي (ت. 749هـ/1349م) : **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 142هـ/2004م، ج.4، ص.145.

[13] ابن حوقل : المصدر السابق، ج.1، ص.76؛ الإدريسي : المصدر السابق، ج.1، ص.259.

[14] الإدريسي : المصدر السابق، ج.1، ص.261.

[15] استعانت بجاية ببعض الأسواق القريبة منها لتزويدها ببعض المحاصيل الزراعية التي تفتقر إليها. وأحيانا لجأت إلى الأسواق الأوروبية لتغطية بعض المنتجات الفلاحية.

[16]. حسن الوزان : **وصف إفريقية**، تر. محمد حجي ومحمد الأخضر، ط.2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.

[17] مارمول كربخال : **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي وآخرون، مطابع المعارف الجديدة، الرباط 1408-1409ه/1988-1989م، ج.2، ص.377.

[18] أنظر: Charles Emmanuel Dufourq, **L'Espagne Catalane et le Meghrib aux XIII et XIV siècles,** Presses universitaire de France, Paris, 1966, p.66.

[19] مارمول كربخال : المصدر السابق، ج.2، ص.376.
[20] الحِميرى : **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تح.إحسان عباس، ط.2، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، 1980، ص.80.
[21] ابن خلدون : المصدر السابق، ج.6، ص.232.
[22] أنظر: L. charles féraud, **histoire des villes de la province de Constantine, Bougie,** typographie et litiiographie l. arnolet. Constantine, 1869, p.67.
[23] المراكشي عبد الواحد بن علي التميمي (ت.647ه/1250م) : **المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين**، تح. صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، 1426ه/2006م، ص.153.
[24] البكري : المصدر السابق، ج.2، ص.757. وانظر أيضا : مارمول كربخال : المصدر السابق، ج.2، ص.376.
[25] مارمول كربخال : المصدر السابق، ج.2، ص.376.
[26] مؤلف مجهول : المصدر السابق، ص.129.
[27] الإدريسي : المصدر السابق، ج.1، ص.260.
[28] من النباتات الطبية التي اشتهرت في بجاية وعرفت رواجا منقطع النظير يوجد نبات أَطريلال وهو اسم بربري بمعنى رجل الطير، ويعرفه المصريون باسم رجل الغراب ، وهذا النبات يُشبه إلى حد ما مادة الشب من حيث الساق غير أنه يختلف عليه في لون زهره الأبيض بخلاف الشب لونه أصفر، ومن فوائد هذه النبتة أنها: تُخرج الدود، وحب القرع ويُستعمل أيضا في مداواة البهق والوضح ، أول من اكتشف منافع هذا العشب هم البجائيون فقصدهم الناس للتداوي بهذا العشب من أمكنة مختلفة من مشارق العالم الإسلامي ومغاربه بسبب احتكارهم لطريقة استعمال هذا الدواء، فتعلمها خلفهم عن سلفهم دون إشراك أي أجنبي عنهم في طريق تحضير واستعمال هذا الدواء، إلا أن هذا الكتمان أطلع عليه البعض فعرّف به فانتشر استعماله في بعض الأماكن واستفاد منه الناس إفادة كبيرة. ارجع إلى العمري : المصدر السابق، ج.22، ص.115.
[29] الإدريسي : المصدر السابق، ج.1، ص.259؛ الحِميرى : المصدر السابق، ص.80.
[30] القلقشندي أبو العَبَّاس أحمد بن علي بن محمد (ت.821هـ/1418م) : **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1409هـ/1989م، ج.5، ص.105.
[31] مارمول كربخال : المصدر السابق، ج.2، ص.376.
[32] نفسه
[33] البكري : المصدر السابق، ج.1، ص.757.

[34] الإدريسي : المصدر السابق، ج.1، ص.260.
[35] ابن خلدون : المصدر السابق، ج.1، ص.314.
[36] دومنيك فاليرين : **بجاية ميناء مغاربي (1067-1510)**، تر. علاوة عمارة، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2014، ج.2، ص.659-660.
[37] الادريسي : المصدر السابق، ج.1، ص.260.
[38] عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق، ص.253و256.
[39] مقديش محمود بن سعيد (ت. 1228 هـ /1813 م) : **نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار**، تح. علي الزواري، محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988م، ص. 84.
[40] عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق، ص. 256.
[41] الحموي : المصدر السابق، ج.1، ص.339.
[42] الإدريسي : المصدر السابق، ج.1، ص.260.
[43] ابن عذاري المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد (ت. نحو 695هـ): **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تح. ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، ط.3، دار الثقافة، بيروت، 1983، ج.1، ص.312.
[44] الادريسي : المصدر السابق، ج.1، ص.261.
[45] مارمول كربخال : المصدر السابق، ج.2، ص.377.
[46] الحموي : المصدر السابق، ج.1، ص.339.
[47] مؤلف مجهول : المصدر السابق، ص.130.
[48] الذهبي : المصدر السابق، ج.38، ص.259.
[49] ابن بطوطة شمس الدِّين أبو عَبْد الله مُحَمَّد بن عَبْد الله بن محمد اللواتي الطنجي (ت.779هـ/1377م) : **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، أكاديمية المملكة المَغْربية، الرباط، 1997، ج.1، ص.161.
[50] Mas-latrie Louis, **Traités de paix et de commerce et Documents divers concernant les relations des chrétiens avec les arabes de l'Afrique Septentrional au moyen âge**, Supplément et Tables J. Baur et détaille, Libraires, Paris, 1872. P.47-50.
[51] أنظر: Pascal Buresi, **Il Maghreb almoravide e almohade e i rapporti con l'Europa cristiana (secc. XI-XIII).** Cesare Alzati; Luciano Vaccaro. Africa / Ifrīqiya. Il Maghreb nella storia religiosa di Cristianesimo e Islam, Libreria Editrice Vaticana,2016,p.313.
[52] أنظر: Mas-latrie, op. cit., p.47.

[53] أنظر: Ibid., p.47 ; charles féraud, op. cit., p.92 .

[54] أنظر Ibid., p.49 ; Pascal Buresi, op. cit., p.315.

[55] أنظر: Dufourq, op. cit., p.31.

[56] الإدريسي : المصدر السابق، ج.1، ص.260.

[57] روبار برنشفيك : **تَاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرْن 13 إلى القرْن15** ، تَرجَمَة حمادي الساحلي، دَار الغَرْب الإسلامي، بَيْرُوت،1988، ج1.، ص.416.

[58] يُفيد ماس لاتري من انه غداة تحرير المهدية من الاحتلال النورماني سارعت القوى التجارية الأوروبية والمتمثلة في بيزا والبندقية والبروفنساليين والصقليين وغيرهم من تجار أوروبا النصارى الذين رغبوا في التجارة مع الموانئ المغربية ارجع إلى: Mas-latrie Louis , op. cit., p.47

[59] أنظر: Ibid., p.47 ; charles féraud, op. cit., p.92

[60] أنظر: Dufourq, op. cit., p.66.

[61] مارمول كربخال : المصدر السابق، ج.2، ص.377.

[62] روبار برنشفيك : المرجع السابق، ج.1، ص.410.